تأملات في الأدب والحياة

للأستاذ اسماعيل مظهر

المدنيات وبيئاتها

لكل مدنية من المدنيات بيئات عديدة، ومن هذه البيئات ما هو طبيعي فطري، ومنها ما هو اكتسابي

أما الطبيعي فكالموقع الجغرافي، وطبيعة الأرض وما يحيط بها من البحار، وما يتخللها من الأنهار، وما يبرز فوقها من الجبال، وما ينبسط فيها من السهول، وما ينزل بها من المطر، وما يهب عليها من الرياح، وما ينبت في الأرض من الأشجار، وما يتخلل جوها من الرطوبة، وما يذيع فيه من حرارة أو برودة. وأما الاكتسابي فكالمعتقدات العامة والشرائع الموروثة والأديان والعادات وطبيعة الحكم وصفة الحكومة وأخلاق الطبقة الحاكمة إلى غير ذلك

أما البيئة الطبيعية فقلما تتغير؛ وإن تغيرت فان تغيرها لا يتناول الجوهر الثابت، وإنما يتناول العرض، فازدياد هبوب الرياح أو قلة الأمطار أو تغير الطقس من جفاف إلى رطوبة؛ أو من حرارة إلى اعتدال، قد يؤثر في الأمزجة بعض الشيء؛ ولكن الأثر لا يتناول الطبع الثابت في الأنفس بما يغير من طابع مدنية أصيل في الجبلة. ذلك على العكس من البيئة المكتسبة، فان زوال معتقد من المعتقدات، أو انهيار دين من الأديان، أو شريعة من الشرائع، أو عادة من العادات، وحلول غيرها محلها، قد يلبس مدنية من المدنيات ثوباً جديداً ويدمغها بميسم له سمات خاصة. على أن هذه السمات قد تتكيف بما يلائم وحي البيئة الطبيعية، غير أنه يكون مختلفاً عن السمات التي تتسم بها المدنية في ظل معتقدات أو أديان أو شرائع انهارت وقامت أخرى على آثارها

على هذا نستطيع أن نقضي بأن انحلال المدنيات إنما يتناول بيئاتها المكتسبة، لأن انحلال بيئاتها الطبيعية مستحيل تقريباً. أما السبب في أن تظل شعوب أزماناً طويلة في ركود بعد انحلال طور من أطوارها المدنية، فيرجع في الغالب إلى انعدام المنبهات التي تبعث في الأنفس حب المجد والعظمة وعلو الذكر والسيادة العالمية. وهذه صفات إن انحلت بانحلال وجه من وجوه المدنية فان بعثها يكون رهن ظروف لا يمكن التكهن بها

التفكير المستقل

« أرثر شوبنهور » فيلسوف ألماني ولد بمدينة دنتزج سنة ١٧٨٨، وتوفي سنة ١٨٦٠. ولقد كتب مؤلفات أشهرها وأعمقها كتابه « العالم إرادة وفكر » ولقد نال هذا الفيلسوف شهرته في مصر خاصة والشرق عامة بنظريته في القوة ونظريته في المرأة، إذ نزع إلى أفكار وتأملات ألبسته في الأذهان ثوباً من التطرف كانت له جدته وطرافته في عصر كنا فيه مقيدين بقيود تخلصنا من أكثرها في عصرنا هذا. غير أن لهذا الفيلسوف الفذ تأملات في الحياة والتفكير قلما عرفنا منها شيئاً. ومن أطرف ما خص بتأملات هذا الفيلسوف من نواحي الحياة ناحية الفكر المستقل، أو التفكير المستقل الذي يكون خالصاً لك من التأثر بأفكار الغير ونظرياتهم. ونقتطف هنا لقراء الرسالة فقرات من مقاله في هذا الموضوع وهو من أمتع ما كتب شوبنهور قال:

« كما أن أغنى خزائن الكتب وأحفلها بالمؤلفات لا تكون مفيدة — إذا لم ترتب — فائدة أخرى قليلة العدد حسنة الترتيب. كذلك الحال في ما نحصل بالدرس من المعلومات، فإنها مهما غزرت وكثرت لا تفيدك شيئاً إن أنت لم تصقلها بفكرك الخاص فائدة معلومات قليلة تعهدتها بالصقل والتأمل الطويل فيها. لأنك بالتأليف بين معلوماتك، ومقارنة كل الحقائق التي تقع لك مقارنة تفكير وعمق، إنما تستطيع أن تهضم المعارف التي تحصل عليها فتصبح ملكاً لك وضوع قوتك. فإن الإنسان ينبغي له أن يدرس. ولكن ما يدرسه لا يصبح ملكاً خالصاً له إلا إذا فكر فيه وأطال التأمل له "

« إن الفرق بين الأثر الذي يحدثه التفكير الذاتي، والأثر الذي تحدثه القراءة في الفكر، كبير جهد الكبر. ذلك بأن التفكير الذاتي وحده هو الذي له القدرة على أن يمد آفاق الفكر في نواح مختلفة تزيد في قوة الابتكار في الذهن حتى يتسنى له أن يختار حراً طليقاً أي طريق يسلك، وينظر في أي جهة يختار »

« إن القراءة تفرض على الذهن أفكاراً ، هى بذاتها غريبة متنافرة بعيدة عن المتّجه والمنحى الأصيل لفكر القارئ ؛ فيكون مثلها كمثل الخاتم أن يطبع الشمع بنقوشه الخاصة . وإن لذلك على العقل من الأثر ما يعادل أثر الأشياء الخارجية على الأجسام، فيظل العقل مضطراً إلى التفكير فى هذا ساعة وفى ذاك أخرى ، من غير أن يكون له رغبة فى الانكباب على التفكير فى كليهما أو القدرة على استيعابهما . أمّا إذا مضى العقل يفكر لذاته فإنه إنما ينساق إلى التفكير فى أشياء تفرضها عليه السليقة وتدعوه إليها الفطرة . وإنّ لى أن أقول إن كثرة القراءة تجرد العقل من مرونته . ومثلها فى ذلك كمثل الثقل النّارز الشديد إذا وضع على فُوَّهة نبع فائض ، فإنه يثقله ويعيق جريانه . وعندى أن أقوى الوسائل التى تصد الفكر عن الوصول إلى الأفكار المبتكرة هى أن تلجأ إلى كتاب تقرأ فيه كلما أردت أن تنفق وقتاً أو تقطع مرحلة من فراغك . وهذا هو السبب فى أنّ كثيراً من حملة الشهادات العليا يكون عادة أقل ذكاء وأكثر بلادة مما هم إذا تركوا على الفطرة »

« كرستوفر مارلو » وكتاب فوست

هو من كبار كتاب الدرامة من الانجليز ، وهو من المتقدمين على شكسبير . ولد فى سنة ١٥٦٣ ، أو سنة ١٥٦٤ ، ودرس فى كمبردج ثم هبط لندن واستقر بها . وله كثير من المؤلفات أهمها كتاب « فوست » الذي نسج على منواله جوته الألمانى . ولعل كثيراً من القراء لا يعرفون أن لهذا المؤلف الانجليزى حظر السبق فى صياغة تلك الدرامة العظمى التى خلدت اسم جوته فى التاريخ ، وغشت على اسم مارلو بسحابة من النسيان . وننقل هنا قطعاً مما كتب « مارلو » عسى أن ينتبه بعض الأدباء إلى دراسة ذلك الرأى الأدبى الجليل :

فوست فى حجرة درسه :

فوست — والآن ، أمن المحتوم أن تحل على فوست اللعنة ، وألا يكون من الناجين ؟ ماالذى يحملنى إذن على أن أفكر فى الله والسماء ؟ ألا بُعداً لمثل هذه التخيلات الدنية ، ومرحباً باليأس ، باليأس من الله ، والثقة فى العمل لا تتفهقر ، بل تشدد يافوست وكن قوىّ الارادة . لماذا تضطرب ؟ ها هو ذا شىء يرن فى أذنى صداه . « أقلع عن هذا السحر وارجع إلى الله ثانية » ، أيرجع فوست إلى الله مرة أخرى ؟ إلى الله ! إنه لا يحبك . إن الله الذي ينبغي أن تخدم وتعبد ، إنما هو شهوتك الدانية ، إذ فيها قد انغرس حب بعل وتأصل . وله سوف أشيد مذبحاً وكنيسة ، وأقرب له دم الأطفال فائراً حاراً

يدخل مَلَكان : مَلَك الخير ، وملك الشر

ملك الخير — فوست ! أقلع عن هذه المهنة الساقطة .

فوست — الندم . الصلاة . التوبة . ماعندك منها ؟

ملك الخير — نعم : إنها الأسباب التى تأخذ بيدك إلى السماء .

ملك الشر — إنما الأوهام ، وثمرات الجنة والمسّ ، هى التى تخلّط العقل ، وتجعله أجنح إلى التصديق بها ، والاعتقاد فيها

ملك الخير — فوست ! فكر فى السماء ، وفى أشياء السّماء .

ملك الشر — كلا يافوست ! بل فكّر فى العزة والمال .

يخرج الملكان

فوست — فى المال ! لِمَ ذا ؟ ان ضيعة إمبيدن ستصبح ملكاً لى . ما الذى سيكون فى مستطاع الله أن يفعل بى إذا ما أبّدنى مفستوفيليس وأخذ بيدى ؟ إنك ناج يافوست . لا تكثر من شكوكك . تعالَ . تعالَ يامفستوفيليس ، وقص على أخبارك السارة عن إبليس العظيم . إن الليل لم ينتصف بعد . تعال . تعال يا مفستوفيليس !

يدخل مفستوفيليس

والآن خبرنى ، ما الذى يقوله سيدك إبليس ؟

مفستوفيليس — قال إنى سأكون فى خدمة يافوست طوال حياته ، على أن يشترى خدمتى له بثمن هو روحه .

فوست — إن فوست قد جازف فعلاً بهذا وبذلك

مفستوفيليس — ولكن تذكر يافوست أنك لابد من أن تهب روحك مخلصاً ، وأن تكتب بالهبة صكاً يكون مداده من دمك ، فان هذا الضمان يطلبه إبليس العظيم . أما إذا رفضت فسوف أعود إلى جهنم .

فوست — تأنّ يامفستوفيليس وخبرنى : أى خير يستمد سيدك من روحى ؟

مفستوفيليس — يزيد بها ملكوته .

فوست — أهذا هو السبب فى أن بلونا وعتحننا كما يفعل ؟

مفستوفيليس — دعك من هذا وخبرنى هل أنال روحك لأكون لك عبداً وأقف على خدمتك وأضفى عليك من العطايا أكثر مما يصل إليه خيالك ؟

فوست — نعم . سأهبك إياها .

مفستوفيليس — إذن اطعن ذراعك بشجاعة ، وقيد روحك واعترف بأن من حق إبليس العظيم أن يستحوذ عليها يوماً مّا لتكون له . وهنالك ستكون عظيما كإبليس نفسه .

فوست — (يطعن ذراعه) مفستوفيليس ! حباً لك أقطع ذراعى ، وبدى الصميم أسجل أن روحى أصبح ملكاً لإبليس العظيم ، للملك الأكبر المهيمن على دار الظلام المستديم . أنظر ! ها هو ذا الدم الذى يقطر من ذراعى ، لعل فيه كفاء لغرضى

مفستوفيليس — إنما هو لزام عليك أن تكتب به صك هبة

فوست — نعم . سأفعل . (ويكتب) غير أن دمى يتخثر سريعاً ، ولا أقدر أن أكتب به أزيد مما كتبت

مفستوفيليس — سأحضر لك قبساً من نار يحلله ويجعله صالحاً (ويخرج)

فوست — أى شىء ينذر به تخثر دمى ووقوفه عن الاندفاق ؟ أينذر بأنه لا يريد أن يكون مداداً لكتابة هذا الصك ؟ لِمَ لا يعود إلى الجريان والتدفق حتى أقدر على تحرير الصك به ؟ « إن فوست يهبك روحه » : آه . عند هذا وقف دمى . ولكن لماذا لا تعقل يا فوست ؟ أليس روحك ملكاً لك ؟ إذن فاكتب ثانية — « إن فوست يهبك روحه »

(يدخل مفستوفيليس حاملاً جمرات ملتهبة)

مفستوفيليس — فوست ! هذه نار . تقدم وضعها على الدم

فوست — لقد أخذ الدم يصفو مرة أخرى . وإذن ينبغى لى أن أتم الأمرَ سريعاً (ويمضى فى الكتابة)

مفستوفيليس — (مبتعداً) لم أثق من حيلة إلاّ أخذت بها لأنال روحه

فوست — لقد انتهى الصك ، ووهب فوست روحه لإبليس العظيم . ولكن أى أثر ذاك الذي انطبع على ذراعى ؟ أين أطير ؟ أين أذهب ؟ أإلى الله ! إنه سوف ماقٍ لى فى جهنم ؟ لقد غشتنى حواسى . ليس من شىء على ذراعى . ذلك ظاهر . لقد كان هنالك شىء مكتوب على ذراعى . أين أطير ؟ أين أذهب ؟

مفستوفيليس — سأبحث عن شىء يهدئ روحه ويرضى عقله . (يتمدد ثم يخرج)

* * *

هذه قطعة مما كتب « مارلو » الأديب الإنجليزى . ولا شك عندى أن فى خياله وسياقه لشبهاً بما كتب « جوته » . وأن مقابلة أدبية بين ما كتب الأديب الإنجليزى والخالد الألمانى ، لموضعاً للدرس ومجالاً لخلق صورة من الأدب حديثة

اسماعيل مظهر

هكذا أغنى

نبع من الالهام الشعرى الجديد

يفجّره إحساس مشبوب ، ويصوّره أسلوب عربى مشرق ،
طَلْق الخيال ، جديد الاتجاه ، صادق الوحى

ديوان الطبيعة ، والفن ، والجمال

للشاعر محمود حسن اسماعيل

صاحب ديوان (أغانى الكوخ)

يظهر فى منتصف مايو وقيمة الاشتراك فى النسخة ٧ قروش
ترسل للمؤلف بالمجمع اللغوى الملكى
والثمن بعد الطبع ١٥ قرشاً
٣٠٠ صفحة فى أرقى طباعة مزودة بالصور الفنية